خير البريّة .. عليّ وشيعته

موجز في تفسير سورة البيّنة

إعداد: سليمان بيضون

* السورة الثامنة والتسعون في ترتيب سوَر المُصحف الشريف، نزلت بعد «الطلاق».
* سُمّيت بـ«البيّنة» لكونها موضوع السورة، وقد ورد هذا التعبير في الآيتين الأولى والرابعة منها.
* آياتها ثماني، وهي مدنيّة، وجاء في الحديث النبويّ الشريف: «..وما من عبد يقرأها بليل إلّا بعث الله ملائكة يحفظونه في دينه ودنياه ويدعون له بالمغفرة والرحمة..».
* ما يلي موجز في التعريف بهذه السورة المباركة اخترناه من تفاسير: (نور الثّقلين)، و(الميزان)، و(الأمثل).

المشهور أنّ هذه السورة نزلت في المدينة، ومحتواها يؤيّد ذلك، إذ تحدّثت في مواضع متعدّدة عن أهل الكتاب، والمسلمون واجهوا أهل الكتاب في المدينة غالباً. إضافة إلى ذلك فإنّ السورة تحدّثت عن الصلاة والزكاة، والزكاة -وإن شرّعت في مكّة- اتّخذت طابعها الرسمي الواسع في المدينة.

محتوى السورة

تناولت السورة رسالة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وما فيها من دلائل بيّنة، هذه الرسالة التي كان أهل الكتاب ينتظرونها، وحين ظهرت أعرض عنها فريق منهم لما وجدوا فيها من خطر على مصالحهم الشخصية.

والسورة تقرّر حقيقة وجود الإيمان، والتوحيد، والصلاة، والصيام في كلّ الأديان ودعوات الأنبياء باعتبارها أصولاً ثابتة خالدة.

وفي مقطع آخر من السورة بيان عن مواقف أهل الكتاب والمشركين تجاه الإسلام، فبعضهم آمن وعمل صالحاً فهو خير المخلوقات، وبعضهم كفر وأشرك فهو شرّ البرية.

وقد أطلق على السورة -لمناسبة ألفاظها- أسماء متعدّدة، أشهرها: «البيّنة»، و«لم يكن»، و«القيّمة».

ثواب قراءتها

* عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: «**لو يعلم الناس ما في ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ لعطّلوا الأهل والمال وتعلّموها**. فقال رجل من خزاعة: ما فيها من الأجر يا رسول الله؟ فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: **لا يقرأها منافق أبداً، ولا عبدٌ في قلبه شكّ في الله عزّ وجلّ، والله إنّ الملائكة المقرّبين لَيقرؤونها منذ خلق الله السماوات والأرض لا يفترون عن قراءتها، وما من عبد يقرأها بليل إلّا بعث الله ملائكة يحفظونه في دينه ودنياه، ويدعون له بالمغفرة والرحمة، فإن قرأها نهاراً أعطي عليها من الثواب مثل ما أضاء عليه النهار وأظلم عليه الليل**».
* وعنه صلّى الله عليه وآله وسلّم: «..**ومن قرأها كان يوم القيامة مع خير البريّة مسافراً ومقيماً**».
* عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**من قرأ سورة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ﴾ كان بريئاً من الشرك، وأُدخل في دين محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم، وبعثه الله عزّ وجلّ مؤمناً، وحاسبه حساباً يسيراً**».

تفسير آيات منها

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الآية:١.

الإمام الباقر عليه السلام: «**البيّنة، محمّد صلّى الله عليه وآله**».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ الآية:٧.

* النبي صلّى الله عليه وآله: «**أنا أفضل من جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ومن جميع الملائكة المقرّبين، وأنا خير البريّة، وسيّد ولد آدم**».

* أمير المؤمنين عليه السلام: «**قُبض رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وأنا مُسنده إلى صدري، فقال: يا عليّ! ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾؟ هم شيعتك، وموعدي وموعدكم الحوض، إذا اجتمعت الأمم للحساب يُدعون غرّاً محجّلين**».

* الإمام الباقر عليه السلام: «**قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لعليّ** «..»: **هم أنت وشيعتك، وميعادكم الحوض، إذا حشر الناس جئت أنت وشيعتك شباعاً مَرويين غرّاً محجّلين**».

* عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كنّا عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فأقبل عليّ، فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله: «**والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة**، ونزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، فكان أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إذا أقبل عليّ قالوا: جاء خير البريّة».

قال المفسّرون

«**تفسير الميزان**»: قوله تعالى: ﴿..يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ البينة:٢-٣. الصحف جمع صحيفة وهي ما يكتب فيها، والمراد بها أجزاء القرآن النازلة، وقد تكرّر في كلامه تعالى إطلاق الصحف على أجزاء الكتب السماوية ومنها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾ عبس:١٣-١٤. والمراد بكون الصحف مطهّرة تقدّسها من قذارة الباطل بمسّ الشياطين، وقد تكرّر منه تعالى أنّه حقّ مصون من مداخلة الشياطين، وقال: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ الواقعة:٧٩.

والكتب جمع كتاب ومعناه المكتوب، ويُطلق على اللوح والقرطاس ونحوهما المنقوشة فيها الألفاظ، وعلى نفس الألفاظ التي تحكي عنها النقوش، وربما يطلق على المعاني بما أنّها محكيّة بالألفاظ، ويطلق أيضاً على الحكم والقضاء، يقال: كتب عليه كذا أي قضى أن يفعل كذا، قال تعالى: ﴿..كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ..﴾ البقرة:١٨٣، وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ ..﴾ البقرة:٢١٦. والظاهر أنّ المراد بالكتب التي في الصحف الأحكام والقضايا الإلهية المتعلّقة بالاعتقاد والعمل، ومن الدليل عليه توصيفها بـ«القيّمة»، فإنّها من القيام بالشيء بمعنى حفظه ومراعاة مصلحته وضمان سعادته، قال تعالى: ﴿..أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ..﴾ يوسف:٤٠، ومعلوم أنّ الصحف السماوية إنّما تقوم بأمر المجتمع الإنساني وتحفظ مصلحته بما فيها من الأحكام والقضايا المتعلّقة بالاعتقاد والعمل.

«**تفسير الأمثل**»: تذكر الآيات مجموعتين من الناس مختلفتين في موقفهما من الدعوة «كافرة» و«مؤمنة»، تذكر الكافرين أوّلاً بالقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ البينة:٦. وإنّما قال «كفروا» لكفرهم بالدين المبين، وإلّا فإنّ كُفرهم ليس بجديد. وعبارة «أولئك هم شرّ البرية» عبارة قارعة مثيرة، تعني أنّه لا يوجد بين الأحياء وغير الأحياء موجود أضلّ وأسوأ من الذين تركوا الطريق المستقيم بعد وضوح الحقّ وإتمام الحجّة، وساروا في طريق الضلال.

الآية التالية تذكر المجموعة الثانية، وهم المؤمنون، وتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ البينة:٧. والآية التالية تذكر جزاء هؤلاء المؤمنين، وما لهم عند الله من مثوبة: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا ..﴾ البينة:٨. يلاحظ أنّ الحديث عن المؤمنين مقرون بذكر الأعمال الصالحة باعتبارها ثمرة دوحة الإيمان. وفي ذلك إشارة إلى أنّ ادّعاء الإيمان وحده لا يكفي، بل لا بدّ من أن تشهد عليه الأعمال الصالحة.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ..﴾

السمع والبصر والفؤاد نِعَمٌ إلهية لمعرفة الحقّ

العلّامة السيد محمد حسين الطّباطبائي رحمه الله

تعكس سورة الإسراء في مضمونها ومحتواها العقائدي والأخلاقي والاجتماعي لوحة متكاملة ومتناسقة لسموّ البشر وتكاملهم في المجالات المختلفة. فهي وابتداءً من الآية الثالثة والعشرين منها، تشرع بسلسلة من الأحكام أوّلها النهي عن عبادة غير الله تعالى، مروراً بالدعوة للإحسان إلى الوالدين، وإعطاء حقوق القرابات والمحتاجين، إلى النهي عن التبذير، وقتل الأولاد، والزنا، وأكل مال اليتيم، وصولاً إلى التحذير من اتّباع الإنسان ما ليس له به علم، وأنّ ذلك سيكون موردا للمحاسبة يوم القيامة، وهو قوله تعالى في الآية الساسة والثلاثين: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

وما يلي مختصر بحث للعلامة الطباطبائي حول الآية من تفسيره «الميزان» في المجلّد الثالث عشر من الصفحة ٩٢ إلى الصفحة ٩٦ منه.

«شعائر»

القراءة المشهورة ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ بسكون القاف وضمّ الفاء، من قفا يقفو قفواً إذا اتّبع الشيء، ومنه قافية الشعر لكونها في آخر المصراع تابعة لما تقدّمها.

وقُرئ «ولا تقُفْ» بضمّ القاف وسكون الفاء.

والآية تنهى عن اتّباع ما لا علمَ به، وهي لإطلاقها تشمل الاتّباع اعتقاداً وعملاً، وتتحصّل في مثل قولنا: «لا تعتقد ما لا علم لك به، ولا تقُل ما لا علم لك به، ولا تفعل ما لا علم لك به، لأنّ في ذلك كلّه اتّباعاً».

وفي ذلك إمضاءٌ لما تقضي به الفطرة الإنسانية، وهو وجوب اتّباع العلم والمنع عن اتّباع غيره، فإنّ الإنسان بفطرته الموهوبة لا يريد في مسير حياته باعتقاده أو عمله إلّا إصابة الواقع والحصول على ما في متن الخارج، والمعلومُ هو الذي يصحّ له أن يقال: «إنّه هو». وأمّا المظنون والمشكوك والموهوم فلا يصحّ فيه إطلاق القول بأنّه هو.

والإنسان بفطرته السليمة يتّبع في اعتقاده ما يراه حقّاً ويجده واقعاً في الخارج، ويتّبع في عمله ما يرى نفسه مصيباً في تشخيصه، وذلك في ما تيسّر له أن يحصّل العلمَ به، وأمّا في ما لا يتيسّر له العلم به كالفروع الاعتقادية، بالنسبة إلى بعض الناس، وغالب الأعمال، بالنسبة إلى غالب الناس، فإنّ الفطرة السليمة تدفعه إلى اتّباع علمِ مَن له علمٌ بذلك وخبرة باعتباره علمه وخبرته عِلماً لنفسه، فيُؤوِّل اتّباعه في ذلك بالحقيقة اتّباعاً لعلمه (هو)، بأنّ له

علماً وخبرة، كما يرجع السالك وهو لا يعرف الطريق إلى الدليل، لكن مع علمه بخبرته ومعرفته، ويرجع المريض إلى الطبيب، ومثله أرباب الحوائج إلى مختلف الصناعات المتعلّقة بحوائجهم إلى أصحاب تلك الصناعات.

ويتحصّل من ذلك أنّه لا يتخطّى العلمَ في مسير حياته بحسب ما تهدي إليه فطرته، غير أنّه يَعُدّ ما تثق به نفسه ويطمئن إليه قلبه علماً، وإن لم يكن ذاك اليقين الذي يسمّى علماً في صناعة البرهان من المنطق. فله في كلّ مسألة ترِد عليه إمّا علمٌ بنفس المسألة، وإمّا دليل علميّ بوجوب العمل بما يؤدّيه ويدلّ عليه، وعلى هذا ينبغي أن يُنْزَلَ قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ..﴾.

فاتّباع الظنّ عن دليل علميّ بوجوب اتّباعه اتّباعٌ للعلم كاتّباع العلم في مورد العلم. فيؤول المعنى إلى أنّه يحرم الاقتحام على اعتقاد أو عمل يمكن تحصيل العلم به إلّا بعد تحصيل العلم، والاقتحام على ما لا يمكن فيه ذلك إلّا بعد الاعتماد على دليل علمّي يجوّز الاقتحامَ والورود، وذلك كأخذ الأحكام عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، واتّباعه وإطاعته فيما يأمر به وينهى عنه من قِبل ربّه، وتناول المريض ما يأمر به الطبيب، والرجوع إلى أصحاب الصنائع في ما يرجع إلى صناعتهم، فإنّ الدليل العلمي على عصمة النبيّ دليل علميّ على مطابقة، ما يخبر به أو ما يأمر به وينهى عنه، الواقعَ، وإصابة من اتّبعه الصوابَ، والحجّةُ العلمية على خبرة الطبيب في طبّه وأصحاب الصناعات في صناعاتهم حجّة علمية على إصابة من يرجع إليهم في ما يعمل به. ولولا كون الاقتحام على العمل -عن حجّة علمية على وجوب الاقتحام- اقتحاماً علمياً، لكانت الآية قاصرةً عن الدلالة على مدلولها من رأس، فإنّ الطريق إلى فهم مدلول الآية هو ظهورها اللفظيّ فيه، والظهور اللفظي من الأدلّة الظنّية، غير أنّه حجّة عن دليل علمي، وهو بناء العقلاء على حجّيته، فلو كان غيرُ ما تعلّق العلم به بعينه ممّا لا علمَ به مطلقاً لكان اتّباع الظهور -ومنه ظهور نفس الآية- منهيّاً عنه بالآية، وكانت الآية ناهية عن اتّباع نفسها، فكانت ناقضة لنفسها «..».

الشهداء على اتّباع العلم

قوله تعالى: ﴿..إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ تعليل للنهي السابق في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ..﴾.

من أعجبِ ما يُستفاد من آيات الحشر، أنْ يُوقِفَ اللهُ النفسَ الإنسانية فيسألها عمّا أدركتْ، فتشهد على الإنسان نفسه

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد، وإنّما عبّر عنها بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المختصّ بالعقلاء لأنّ كون كلّ منها مسؤلاً عنه يُجريه مجرى العقلاء، وهو كثير النظير في كلامه تعالى.

وعلى ذلك، فالمسؤول هو كلٌّ من السمع والبصر والفؤاد يُسأل عن نفسه فيشهد للإنسان أو عليه، كما قال تعالى: ﴿..وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ يس:٦٥.

واختار بعضهم رجوع ضمير ﴿عَنۡهُ﴾ إلى ﴿كُلُّ﴾، وعودَ باقي الضمائر إلى «المقتفي بغير علمٍ» المدلول عليه في الكلام، فيكون المسؤول هو (المقتفي) يُسأل عن سمعه وبصره وفؤاده كيف استعملها؟ وفيم استعملها؟ ...وهو بعيد.

والمعنى: لا تتّبع ما ليس لك به علم لأنّ الله سبحانه سيَسأل عن السمع والبصر والفؤاد، وهي الوسائل التي يستعملها الإنسان لتحصيل العلم.

والمحّصل من التعليل بحسب انطباقه على المورد أنّ السمع والبصر والفؤاد إنّما هي نِعَمٌ آتاها اللهُ الإنسانَ ليشخّص بها الحقّ ويحصل بها على الواقع فيعتقد به ويبني عليه عملَه، وسيُسأل عن كلّ منها هل أدرك ما استُعمل فيه إدراكاً علمياً؟ وهل اتّبع الإنسان ما حصّلتْه تلك الوسيلة من العلم؟ فيُسأل السمع هل كان ما سمعه معلوماً مقطوعاً به؟ وعن البصر هل كان ما رآه ظاهراً بيّناً؟ وعن الفؤاد هل كان ما فكّره وقضى به يقينياً لا شكّ فيه؟

وهي لا محالة تجيب بالحقّ، وتشهد على ما هو الواقع. فمن الواجب على الإنسان أن يتحرّز عن اتّباع ما ليس له به علم، فإنّ الأعضاء ووسائل العلم التي معه ستُسأل فتشهد عليه في ما اتّبعه ممّا حصّلته ولم يكن له به علم ولا يقبل حينئذٍ له عذر.

ومآله إلى نحو من قولنا: لا تقفُ ما ليس لك به علم فإنّه محفوظٌ عليك في سمعك وبصرك وفؤادك، والله سائلها عن عملك لا محالة، فتكون الآية في معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إلى أن قال ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فصلت:٢٠ – ٢٣، وغيرها من آيات شهادة الأعضاء.

غير أنّ الآية تزيد عليها بعدُ الفؤادَ من الشهداء على الإنسان، وهو الذي به يشعر الإنسان ما يشعر ويُدرك ما يدرك، وهو من أعجب ما يستفاد من آيات الحشر؛ أن يوقِفَ اللهُ النفسَ الإنسانية فيسألها عمّا أدركت، فتشهد على الإنسان نفسه «..».

الدليلُ على عِصمة النبيّ، دليلٌ علميٌّ على مطابقة ما يُخبرُ عنه للواقع

اتّباعُ الظنّ عن دليلٍ علميٍّ بوجوبِ اتّباعه، بمنزلة اتّباعِ العلمِ في موردِ العلم